حـيرة الاسم

نائلة عبد الرحيم عبد الحافظ

أين أبدأ؟ وماذا أكتب؟ أسئلة تتبادر إلى الذهن حين تنوي الكتابة، ولكن ما أن تمسك القلم حتى تتدفق الذكريات وتتناثر أمام ناظريك.

من هناك بدأت قصتي ... في المدرسة الابتدائية التي بدأت بها مشوار حياتي التعليمية وأنا طفلة في السادسة من العمر، وهي ما أسميه بحيرة الاسم. فتراني أقف في غرفة الصف حائرة متلهفة والمعلمة تنادي أسماء طالبات صفي الجدد في أول لقاء لنا في الصف الأول، وتتوالى الطالبات في استلام الكتب تباعاً وأنا أنتظر سماع اسمي بفارغ الصبر، ثم ما لبثت أن توقفت المعلمة عن الكلام وأغلقت الدفتر، ذهبت إليها وفي نفسي دهشة وقلت لها: أنا لم أحصل على الكتب، سألتني: ما اسمك؟ أجبت: فلانة فقالت: ليس لك اسم عندي، امتلأت عيناي بالدموع وأنا أسمع همسات الطالبات: «هي ليست طالبة معنا، إنها غير مسجلة بالمدرسة ... هههه ... هههه».

قرع الجرس وذهبت المعلمة وتركتني في حيرة غير مصدقة ما حدث، وتمنيت ألا ترجع المدرسة أبداً، وأن لا تفتح أبوابها أبداً ... وعند خروج الطالبات من الصف، شرعت أتصنع الانشغال في ترتيب أوراقي وأقلامي داخل تلك الحقيبة البسيطة التي كانت أجمل من كل الحقائب المزركشة في وقتنا هذا ... والتي سهرت عليها طوال الليل وأنا أمسحها وألمعها لهذه المناسبة، عمدت إلى ذلك التصنع حتى أتفادى أي تعليق من الطالبات قد يحرجني أو يجرحني.

هرعت مسرعة إلى أختي التي تكبرني بأربع سنوات وأنا أبكي بحرقة وألم شديد، وأنا أصيح وقلت لها: «لم تعطني المعلمة كتباً كباقي البنات».

ذهبت أختي معي لرؤية المعلمة من جديد، فسألت أختي: ما اسم أختك، فأجابتها: «فلانة» ... ردت المعلمة: «لا يوجد عندي هذا الاسم».

تداركت أختي الموقف وقالت للمعلمة: «آآآآه. .. إن لها اسماً آخر وهو المسجل عندك»!

ضحكت المعلمة وضحك الجميع وسمعت أصواتاً من حولي: «لا تعرف حتى اسمها؟». شعرت بالحرج لعدم معرفتي اسمي الآخر ... واشتقت لمعرفة هذا السر الجديد، وشعرت بحيرة في عيني المعلمة وهي تقول: « شو هالصباح؟!».

وتبادر إلى ذهني: «أنا إن لم أعرف اسمي الآخر طيلة حياتي؟ فكيف لي أن أعرفه الآن؟!».

ذهبت إلى البيت وأنا مستاءة جداً، وسألني الجميع: "كيف المدرسة؟" أجبت: "مش حلوة، وبدّيش أرجع بكرة - لا أحبها، ولمت أهلي وصرخت: "لماذا لم تقولوا لي أن لي اسماً آخر؟".

من هنا يدرك المرء أن توضيح المفهوم لأي طفل مهم جداً، ويؤثر في حياته. اختلاف آراء أهلي في الاسم المحبب لديهم، ووجود اسم مسجل في السجلات الرسمية مخبأ لوقت الحاجة، واسم آخر متكرر على مسمعي، وضعني في مأزق الاسم هذا، وجعلني أفقد اهتمامي بالمدرسة لفترة.

رأيت بسمة على وجه والدتي "رحمها الله"، وقالت وهي تضحك: أحببت أن أناديك بالاسم الذي أعطيناك يوم رأيت النور. وكان هذا الاسم الذي اختاره أخي الأكبر، لأنه اسم أخت صديقه المقرب والمحبب له، التي كانت تكبرني بسنة واحدة. أما الاسم الآخر

الرسمي، فكانت قصته عجيبة. عندما ذهب والدي إلى المختار الذي كان وقتها يدير شؤون الناس في القرية ويسجل المواليد، وطلب منه أن يعمل لي شهادة ميلاد، فسأله وقتها ابن المختار: ماذا تريد أن تسميها. قال: فلانة. فقال له سوف أعطيها اسماً أجمل، لأن هذا الاسم غير جميل. وافقه أبي وقتها على هذا الاسم، وتم ما أراده ابن المختار.

حاول أهلي مراراً تحفيزي، وبطرق شتى، حتى أحب المدرسة مجدداً. وأذكر أنه بعد مرور شهر أو أكثر قليلاً من حادثة الاسم هذه، تعلقت بمعلمة مادة الرياضيات التي كانت تعاملني بمحبة وحنان، لم أعرف لهما تفسيراً إلا بعد أن أتت في يوم وأخذتني من يدي وأصبحت تدخل على الصفوف واحداً تلو الآخر وتقول للمعلمة الموجودة في الصف: "شوفي هالبنت شو بتشبه بنتي"، أدركت وقتها سبب محبتها لي، وشعرت بالزهو في نفسي والطالبات ينظرن لي وأنا افكر "أنا أشبه بنت المعلمة"، وبدأت من حينها أبدع في مادة الرياضيات، وكلما سألني أحد ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين، أقول "معلمة رياضيات مثل مس ناريمان". ولكن للأسف، معلمتي انتقلت من المدرسة بعد سنة، وأذكر أنني كنت متشوقة بعد العطلة لأراها في بداية الصف الثاني، إلا أنني تفاجأت عندما دخلت بمعلمة أخرى تعطي المادة، وبقيت طوال الحصة مذهولة، وكأن شيئاً عزيزاً فقد مني. ولكن الأيام كانت كفيلة بجعلي اعتاد على المدرسة بدون "مس ناريمان"، وبدأت أرى أشياء من منظور مختلف، حتى أنني غيرت وجهة نظري في حلم المستقبل بأن أكون معلمة رياضيات إلى طبيبة. لا أذكر كيف انقلبت الأمور، ولكن كان هذا اللفظ يتكرر على مسامعي حتى من قبل زميلاتي في المدرسة "أريد أن أصبح طبيبة". توالت الأيام وشاءت الأقدار أن تحدث مصادفة الاسم مرة أخرى، وتغير معها النظر لوظيفة المستقبل.

أحببت المدرسة والمواد التي أدرسها، إلا أنني أحببت مادة تخصصي "اللغة الإنجليزية" أكثر منذ لحظة تطابق اسمي مع اسم معلمة المادة ... أحبتني المعلمة وحفزتني "أحسنت يا فلانة اسبقيهم"، هكذا كانت تقول لي دائماً. وفعلاً، كنت دائماً المميزة عندها، وكبرت ووصلت إلى المرحلة الثانوية، وحدثت المصادفة مرة أخرى أن كان اسم معلم مادة تخصصي أيضاً مطابقاً لأسمي بالتذكير، كأن تقول: (رائدة، رائد).

ومن أول اختبار عرفني المعلم طالبة متميزة بالمادة، وازدادت ثقتي باسمي وبنفسي. وكان هذا دافعاً آخر لي لدراسة هذا التخصص في الجامعة. دخلت فعلا جامعة بيرزيت، وبدأت وبإصرار في التحضير لمواد التخصص بالرغم من الصعوبة التي واجهتها في البداية، إلا أنني كنت أقول في نفسي دائما "إما الإنجليزي أو بترك كل الجامعة".

البداية دائماً صعبة، ووجودي مع طلاب وطالبات من مدارس خاصة، أو طالبة كانت في أمريكا وجاءت لتكمل تعليمها، أثر علي نفسياً، وبدأت أحس أنني الأقل حظاً. فأنا درست في مدرسة حكومية في قرية لم اعتد فيها الكلام باللغة الإنجليزية. كنت أفهم ما يقال، ولا أستطيع الرد بسرعة. وحتى أنني كنت أخجل من الكلام في المحاضرة إلا ما ندر. ولكن، وبحمد الله، بدأت أسترجع ثقتي بنفسي عندما بدأنا بالامتحانات وكانت علاماتي جيدة جداً بالمقارنة مع الآخرين الذين انسحبوا من المادة لعدم حصولهم على علامات مرضية.

حصلت على شهادة البكالوريوس، إضافة إلى دبلوم تربية، وتوظفت في مدرسة خاصة، ومن ثم حكومية.

كنت ألمح في عيون طلابي إعجاباً منذ اللقاء الأول. وما أجمل أن ترى طالبة درستها بعد سنين وقد أصبحت معلمة، وتقول: أنت من غيّر مسيرة حياتي مع اللغة الإنجليزية. معك شعرنا أننا نتعلم لغة ممارسة وليس تلقيناً.

لا أقول إنني لا أمر باللحظات الصعبة مع ضغط العمل ومشاكسة الطلاب أحياناً، إلا أنني أرى نفسي في هذه المهنة، أحب طالباتي وأقولها بصراحة إنني اشتاق إليهن. وأشعر بسعادة كبيرة عندما تقول لي ابنتي أحب أن تسألني الطالبات والمعلمات ماذا تعمل والدتك، فأقول بفخر: معلمة لغة إنجليزية.

مدرسة بنات رافات الثانوية

طالبات مدرسة بنات رافات الأساسية تعملان على تنفيذ مجسم فني ضمن مشروع أطفال الشمس مع الفنانة دينيث ودارتشيج من سيريكلانكا.